

نشأة رابع

تحت لواء الزبير

« أصل راج - عصامية الزبير - جيش الزبير
راج يقضى على البلال - المدرسة التي تربي
بها راج - الزبير يغادر السودان - من
مذكرات الزبير . . . »

في نحو عام ١٨٤٦ وفي قرية من قرى بحر الغزال حيث كانت
تعيش قبائل متعددة الأسماء والعادات واللهجات وان اشتركت
جميعها في أنها تعيش على حال من البداوة الأولى، وتفرق في ظلمات
من جهل كفيف، ويتقاتل بعضها مع بعض فلا تهدأ المعارك بينها
يوماً واحداً . . في تلك البيئة المضطربة التي يحكمها قانون الغابة
الأول وتتصارع فيها قوى العبودية والظلام . . خرج « راج »
إلى الدنيا . .

خرج « راج » إلى الدنيا بعد خمسة عشر عاماً من مولد رجل
آخر في الشمال هو « الزبير رحمت العباسي » الذي كان قد تفتحت
عيناه في الثامن من يوليو عام ١٨٣١ على حياة من نوع آخر
في جزيرة « واوسي » التي لم تكن تبعد كثيراً عن الخرطوم حيث
الامن، والدعة، والسلام تنشر أستارها الهادئة البيضاء . .



الفريق الزير رحمت باشا

ولقد قدر لهذين الرجلين بعد ذلك ، وعلى بعد ما بينهما من زمن ونشأة ومكان أن يلتقيا في منطقة بحر الغزال ، وأن تتصل بينهما الأسباب في وقت كانت فيه تلك الأصقاع قد بدأت تهتز تحت زعامة الزبير الشعبية متطلعة في ظلها نحو حياة أسعد وأفضل ، وأن تبلغ منزلة راجح ، ذلك الشاب المغامر الجريء ، منزلة رفيعة سامية من نفس الزبير فيقربه اليه ويسلمه قيادة جيشه وهو لما يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره ، ثم لا يلبث أن يتبناه ويضيف إلى اسمه لقب « الزبير » ليعرفه تاريخ الجنوب بعد ذلك ، وتعرفه وقائع الجهاد ضد الاستعمارين الفرنسي والانجليزى في زحفهما نحو قلب أفريقيا ، باسم « راجح الزبير ... »

ولقد تضاربت الأقوال في حقيقة نسب ذلك القائد فظل غامضاً حتى اليوم وأن كان القول الراجح بشأنه ، وهو الذى أيدته القائد الفرنسى « أميل جنطيل Emile Gentil » ، الذى قاد المعارك الأخيرة ضد راجح ، أنه كان ابناً لأحد ملوك القبائل التى تستوطن حوض بحر الغزال وأنه نشأ نشأة حربية خالصة فشارك أباه وهو لما يزل صغيراً فى المعارك التى يخوضها ضد القبائل المجاورة ، حتى لقي أبوه فى النهاية مصرعه فى إحدى تلك الغزوات وكان راجح ما زال شاباً يافعاً ، وكان نجم الزبير قد بدأ يعلو وصيته قد بدأ يذيع جاذباً حوله الأنصار والأتباع من أهل تلك البلاد ،

فانضم إليه راجح ومنذ ذلك الحين بدأ قدره الذى ربط بينه وبين
الزير يعدد في صبر واناة لكي يلعب دوره المقبل .

• • •

إن تاريخ الزير وارتباطه الوثيق بحياة راجح الأولى بل وبمجرة
التطور عامة التى لحقت باصقاع السودان الجنوبية فى مطلع النصف
الثانى من القرن التاسع عشر ، ليجعل من المستحيل على من يريد
أن يؤرخ لهذه الحقبة الهامة من تاريخ السودان أن يغفل عن
الامام به والتعرف عليه . وبالرغم من أن ذلك التاريخ بتفاصيله
الممتعة ليس مكانه فى الواقع هو هذا الكتاب ^(١) ، إلا أن ذلك
لن يمنعنا من التعرض له هنا فى إيجاز بقدر ما تفرضه علينا محاولة
تتبع نشأة راجح والظروف التى أعدته ليكون قائداً ممتازاً .

نرح الزير إلى الاصقاع الجنوبية فرداً مغموراً أول الأمر
فى خدمة واحد من كبار التجار هو ، على أبى عمورى ، فلم تلبث
شجاعته وهمته أن برزت به إلى الصفوف الأولى ولفقت إليه
أنظار مخدميه الذى لم يجد بدا من اختياره كمساعد له غير أن
الآمال التى كانت تجيش فى صدر الزير لم تقنع بذلك النجاح
بل دفعته ، وقبل أن يمضى على وصوله إلى تلك البلاد وقت طويل ،
إلى أن يستقل فى عمله وأن يبدأ فى الاتجار لحسابه هو .

(١) راجع كتاب (الزير باشا رجل السودان) - المؤلف .

ورويداً رويداً مضت تجارة الزير تنتقل من رواج إلى رواج وساعدته مصاهرته للملك ، تسكته ، ملك نيام نيام على توسيع دائرة نفوذه وتجارته ، كما ساعده ما جبل عليه من مهارة في اجتذاب القلوب ومن حسن معاملته لتابعيه على ذبوع صيته في تلك الأصقاع مما حدا بالناس إلى الدخول في خدمته ، وكان من بينهم راجح كما قدمنا . . . ولقد أدى كل هذا إلى توطيد مركز الزير ونمو زعامته نمواً أخاف ملك نيام نيام نفسه وملوك القبائل المجاورة فمضوا يحتكون به ، ويكيدون له ، ويتربصون بتجارته الأمر الذي دفع الزير إلى التفكير للمرة الأولى في أن يتخذ لنفسه جيشاً ، لحماية تجارته ونفوذه المتزايد . . .

وكانت العادة قد جرت في تلك البلاد على أن يعرضوا للبيع في الأسواق أصحاب الجنايات كاللصوص والزناة حيث يذبحون كالنعاج وتباع لحومهم طعاماً لمن يشترى . ولقد اشتهر الزير بالفرصة فكان يفتدى من الذبح من بين هؤلاء الجناة من يراه أهلاً لخل السلاح حتى اجتمع له نحو خمسمائة رجل اعتقهم من ذلك المصير المرعب فضمن بذلك ولاءهم المطلق له ثم زودهم بالسلاح بعد أن دربهم على استعماله وبهذا كوّن النواة الأولى لجيشه ، وبهذا الجيش مع من دخل في خدمته من أهل البلاد حارب الزير الملك ، تسكته ، والملك ، دوية ، والملك ، شكو ، وكان هؤلاء من أقوى ملوك

القبائل في تلك المنطقة فما كاد يفرغ من هزيمتهم حتى دان له باقي
الملوك بالطاعة والولاء واستتب له الأمر في منطقة مترامية
الأطراف في حوض بحر الغزال فلم يلبث أن اتخذ من « بابة »
وهي التي عرفت بعد ذلك باسم « ديم الزير » عاصمة له يدير منها
شئون مملكته المتزايدة النمو ويستقبل فيها أفواج الناس ورؤساء
القبائل الذين يقبلون الانضمام إليه (١) .

أظهر راجح في خدمة جيش الزير من الموهبة الحربية ما لفت
إليه أنظار ذلك الرجل الذي كان يعرف حقا كيف يختار الرجال
والذي لم تخطئ فراسته أبداً في الحكم على مواهب من حوله
من الأتباع .

وكان الزير إبان زيارته للمناطق الواقعة غرب بحر الغزال قد
التقى هناك بكثير من العبيد الذين آثروا الفرار من أسيادهم
في بلاد الكلكلة ودار التعاشة وغيرها من المناطق وأقبلوا نحوه
يطلبون الأمان ، ولما كان الزير في حاجة إلى إعادة تكوين
جيشه الذي استهلك نواته الأولى قتاله مع القبائل المحيطة به ،
لذا فقد اختار من بين هؤلاء العبيد حوالى الستمائة من الرجال
الأشداء وزودهم بالسلاح والذخيرة وأسند قيادتهم لراجح وهو

(١) كتاب «العاج الأسود» لمؤلفه هـ . جاكسون صفحة ٣٠

لما نزل شابا في نحو الثالثة والعشرين من عمره والذي كان بلاؤه
واخلاصه ومقدرته الفذة في تأديب العصاة من رجال القبائل
المحيطة بأمالك الزبير قد أسرع في الصعود به درجة أثر درجة ،
وأهله ولما يمضى على التحاقه بجيش الزبير أكثر من عامين لأن
يحتل من قلب الزبير مكان الابن تماماً حتى أنه لم يتردد في النهاية
في إعلان تبنيه لهذا الفتى الشاب الذي يحذق فنون القتال حذقا
غريباً وضمه إلى أسرته (١) .

أخذ جيش الزبير بعد ذلك ينمو في سرعة عجيبة ويتزايد عدده
بمن يقبلون للتطوع فيه من أهل البلاد كما قدمنا . وهكذا عندما
تعرضت قوة الزبير الحربية لأول خطر جدى صادفته ممثلا في
حملة البلاللى الذى أرسله خديوى مصر إسماعيل باشا كان جيش
الزبير عندئذ قد بلغ حوالى الأربعة آلاف رجل أبقاهم الزبير
تحت قيادة قوادهم وزعمائهم أنفسهم وإن كان الجميع بعد ذلك
يخضعون في النهاية للقيادة العليا التى أسلمها إلى راجح دون أن يندم
على ذلك يوماً واحداً فيما بعد .

* * *

(١) كان من عادة الزبير أن يتبنى الأفراد من أهل الجنوب ممن يظهرون حذقا
ومواهب ممتازة ويترلمهم من نفسه منزلة الأبناء . ولقد تبنى إلى جوار راجح ، رجب
الزبير من مواليد بحر الفزال وقد الحقه عند حضوره إلى مصر بخدمة البوليس المصرى
حتى بلغ رتبة معاون لإدارة مركز تلا وتوفى بمصر . كما تبنى على فائق الزبير الذى
صاحبه في منفاه ببجبل طارق وتوفى وهو ما زال طالبا بالسنة النهائية بالكلية الحربية
بالقاهرة ، وغيرهم .

قلنا أن الزبير في أوائل عهده بحكم تلك البلاد التي دانت له
بحد السيف قد تعرض لخطر جدى ممثلا في حملة البلالى . والبلالى
هذا كما قال عنه المستكشف الألماني الدكتور جورج شفانيفورث
في كتابه « في قلب أفريقيا » رجل أفاق استطاع أن يخدع خديوى
مصر وأن يضلل حكومته عن حقيقة الوضع في بحر الغزال
لتضعه على رأس قوة توجه لاحتلال « حفرة النحاس » وهي
بلدة تقع على شواطئ بحر الغزال واستغلال مناجم النحاس بها
لحساب الحكومة المصرية . وكان لا بد لهذه القوة إن آجلا أو
عاجلا أن تصطدم بقوة الزبير بوصفه الحاكم الفعلى لتلك المنطقة (١) .
ولكن الزبير لم يكن في نيته على أى حال أن يقاوم الحكومة
المصرية فعمد في أول الأمر إلى تسهيل مهمة البلالى ومده بكافة
المساعدات التي تعينه على تنفيذ أهداف حملته غير أن البلاكى هذا
لم يلبث أن تجاوز حدود مهمته فمضى يثواب التجار على الزبير ويكبد
له ويحرض القبائل ضده فكان لابد للزبير في النهاية من أن يصطدم
بالبلالى اصطداما مباشرا اتاح له أن يجرب قوته الحربية ومقدرة
قائده الشاب راجح في معركة حقيقية لأول مرة ضد جنود نظاميين .
نشبت الحرب إذن بين الزبير والبلالى بعد فترة من المهادنة
لم تدم طويلا . . وكانت قوات البلالى تتألف من أربعة آلاف

(١) « في قلب أفريقيا » مؤلفه جورج شفانيفورث الجزء الثانى صفحه

جندى نظامى مزودين بالعتاد والذخيرة (١) أما راجح القائد الاول لجيش الزير فقد كان متغيبا فى تلك الفترة فى مهمة بعيدة .

وبعد عدة مناوشات متفرقة التحم الزير بالبلالى فى أول معركة جدية عند أسوار عاصمته « ديم الزير » ، لم تلبث أن انتهت بارتداد البلالى إلى « دار موفيو » ، بعد أن كبذ قوات الزير خسائر جسيمة وبعد أن أصيب الزير نفسه بجرح خطير فى قدمه اليمنى عاقه عن مطاردة البلالى واضطره إلى العودة إلى عاصمته محمولا على اكتاف رجاله .

مضى البلالى بعد ذلك يتحصن فى « دار موفيو » ، ويعيد تنظيم قواته استعداداً للمعاودة الهجوم على الزير الذى كانت حالته الصحية قد بدأت تسوء سوءاً بالغاً من جراء الجرح الذى أصيب به حتى لقد باتت حياته يهددها خطر الموت تهديداً بالغاً . فى هذه المرحلة الحرجة عاد راجح من مهمته البعيدة إلى « ديم الزير » ، ليجد ريبه وقائده على هذه الحال من السقم ، والعدو متربص بهم مستعد للانقضاض عليهم فكان عليه عندئذ أن يحمل العبء بمفرده وأن يخوض معركة حياة أو موت ضد البلالى وهى المعركة التى كان يتوقف على نتائجها تقرير مصير الملك الذى أقامه الزير فى تلك المنطقة والتى

(١) راجع كتاب « العاج الأسود » صفحه ٤٠ . وكتاب (تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته) تأليف نعوم بك شقير صفحه ٦٢ .

يعتبرها المؤرخون بحق نقطة البدء في سلسلة الانتصارات الحربية والسياسية التي أحرزها الزير بعد ذلك في جنوب السودان .

التقى راجح بالبلالى عند ديم جيجو ، بالقرب من دار موفيو وكان الأخير قد بدأ سيره لمعاودة الهجوم على ديم الزير . ونشبت المعركة بينهما في فجر يوم من أيام إبريل عام ١٨٧١ فلم تلبث أن دارت الدائرة على البلالى بعد قتال مرير كلفه حياته وأوقع بقواته هزيمة ساحقة قضت عليها نهائيا ..

وقفل راجح ، القائد الشاب الذى لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره ، عائداً إلى ديم الزير بهذا النصر الرائع الذى دفع حكومة الخديوى بعد ذلك إلى قبول الأمر الواقع والاعتراف رسمياً بوضع الزير القائم في منطقة بحر الغزال كحاكم وسيد لها ، والذى لم يلبث أن ذاع في أرجاء السودان كله فدعم مركز الزير ومقدرة قائده راجح تدعيماً رائعاً حتى أنه لم يكذب يمضى على هذا النصر عام واحد حتى كان للزير جيش يبلغ تعداده حوالى الاثنى عشر ألفاً وعلى رأسه نفس القائد الشاب راجح الزير ..

* * *

كيف اتفق للزير أن يترك القيادة العليا لجيش ضخم كهذا لم تشمه أصقاع الجنوب من قبل لشاب يافع كراجح في الوقت الذى كان فيه هذا الجيش يضم بين أركانه رؤساء للقبائل وملوكا حنكتهم التجارب يكبرون راجح بعشرات السنين ؟

للإجابة على هذا السؤال يجدر بنا أن نقف قليلاً لفصل
بعضاً من جوانب السياسة التي كان ينتهجها الزبير في حكم تلك البلاد
وقيادة شعبها .

كان الزبير حريصاً دائماً، وهو الذي وفد إلى تلك البلاد قادماً
من الشمال ، على أن يفهم أهلها تماماً أنه لم يجهز غازياً أو فاتحاً . .
فالجيش الذي التفت حوله كان كله من أهل تلك البلاد أنفسهم ،
وقواده من بين رؤسائهم وملوكهم وهو وإن كان قد تحالف مع
هؤلاء الملوك والرؤساء وضمهم إلى جيشه إلا أنه لم ينس أنه قد
سلبهم سلطانهم المطلق على رعاياهم وأن محاولاته نشر الأمن في
تلك الربوع ، وإشاعة العدل بين الرعايا هي في الواقع أضعاف
غير مباشرة لتنفيذ هؤلاء الرؤساء القائمين على السلب والاعتصاب .
لذا فقد كان طبيعياً عندما يفكر الزبير في إسناد قيادة جيشه
العليا لواحد من أبناء البلاد أن يتخطى هؤلاء الكبار وأن يختار
لذلك راجح ، ابن الجنوب البكر ، لا لأن راجحاً هذا كان
أسيراً عنده مقرباً إلى نفسه كما قد يتبادر إلى الظن ، فالزبير
لم يكن أبداً ممن يسمحون للعواطف أن تفسد عليهم خططهم ،
وإنما لأن راجحاً كان إلى جوار مواهبه الحربية التي مر
عليها منذ فجر صباه يمثل بالنسبة للعهد الجديد الذي أراد أن
يقيم الزبير في بحر الغزال : التطور الجديد والفكرة الجديدة
والعزم الجديد . . . ولكي نزيد هذا الكلام وضوحاً نقول أن

الزبير كان يريد أن يخرج بالبلاد التي أسلمته زعامتها من الطور القبلي الذي كانت تعيش فيه إلى طور الأمة الموحدة التي يسودها عهد جديد يعم فيه الرخاء عن طريق ازدهار التجارة وينتشر فيه نور العلم بين الجميع مع انتشار نور الاسلام بينهم . فالزبير كان تاجراً وهو لم ينس هذه الصفة حتى بعد أن أصبح حاكماً وسلطاناً وكان من المستحيل أن تزدهر التجارة وأن تكون بلاده ملتقى لطرق التجارة الآمنة إلا إذا حقق أهدافه هذه . وكان لا بد له لتحقيقها من القضاء على سلطة رؤساء القبائل الذين تتعارض مصالحهم البدائية مع هذا الهدف البعيد .

ولقد أثبت راجح في ذلك الزمن القصير الذي انقضى على التحاقه بخدمة الزبير من المواهب العسكرية ما أهله ليكون الساعد الأيمن للزبير في تنفيذ سياسته هذه فكان طبيعياً أن يقربه إلى نفسه وأن يطلق يده في قيادة الجيش الذي كان يعول عليه في تحقيق أهدافه .

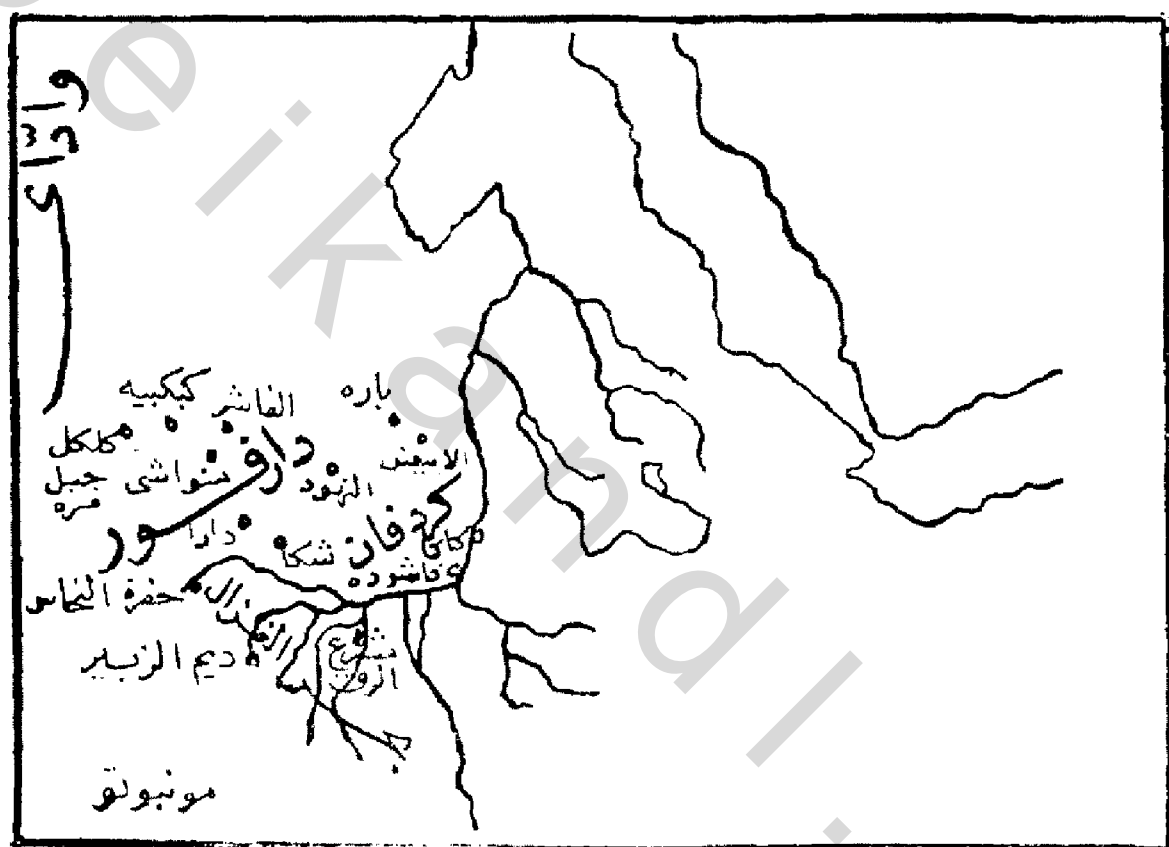
ولقد تعلم راجح في كنف الزبير الشيء الكثير عن حكم الشعوب وعن قيادتها حتى لتعتبر تلك الفترة من حياته التي قضاهها محارباً تحت الوية الزبير المدرسة الحقيقية التي أعدته فيها الأقدار بنجاح لكي يلعب الدور الذي كان ينتظره في ممالك برنو ووداي وعلى شواطئ بحيرة تشاد بعد ذلك . ولعل راجحاً بذلك يكون مدينا

الزبير بكل ذلك النجاح الذى قدر له أن يلقاه فيما بعد وإن كان هذا لا ينقص من قدر راجح شيئاً كما لا ينقص من قدر الزبير هو الآخر أنه يعتبر مدينا لراجح بالكثير من فتوحاته وانتصاراته .

وسوف نرى فى الفصول القادمة كيف سار راجح فى حروبه ضد الاستعمار الفرنسى للسردان الوسطى ، وفى محاولة تكوين امبراطورية تصمد للفتح الفرنسى وتجمع بين القبائل المتناثرة حول بحيرة تشاد وسواحل نهر شارى فى أمة موحدة ذات كيان واحد ، سوف نرى فى تفاصيل ذلك كاه كيف كان راجح يحاول أن يطبق خبرته التى اكتسبها فى حروبه تحت لواء الزبير وأن يسير على نهج سياسته التى تركت فى بحر الغزال تاريخاً مجيداً لنشأة القومية وظهورها .

سار راجح ، بعد معركة البلالى ، تحت لواء الزبير ينتقل معه من نصر إلى نصر ويستكمل تجاربه فى الحرب والسياسة خطوة بعد خطوة ، ويهزم مع ربيبه قوائم مملكة دارفور تلك الثمرة الشهية التى فتح الطريق إليها باخضاع عرب الرزيقات أولاً ، ثم باحتلال «شكا» ثانياً ، حتى نضجت الثمرة فى النهاية واستطاع الزبير بحيشه المظفر الذى كان راجح ، وهو لم يتجاوز بعد الثلاثين من عمره ،

وانفتح الطريق إلى الغرب بعد سقوط دارفور ، وفتح الزبير
لنفسه ولقائده الشاب ميدان قتال جديد في هذا الاتجاه حتى تعفرت



أقدامهما بتراب دودای، التي لم يقيض لها فتحها فعادا إلى دارفور
من جديد دون أن يعلم راجح أنه سوف يعود مرة أخرى إلى تلك
البلاد ليكون له فيها شأنا آخر . .

— 22 —

وبعودة الزبير من غزوة ودّاي هذه بدأت أيامه في السودان
تقترب سريعاً من نهايتها إذ لم يلبث أن دعى إلى القاهرة لمقابلة
خديوى مصر ، وجاءت هذه الدعوة في الواقع نتيجة للمؤامرات
والدسائس التى نسج خيوطها اسماعيل أيوب حاكم السودان وقتئذ
الذى أراد أن يتخلص من نفوذ الزبير في السودان بابعاده عنه .
واستجاب الزبير إلى دعوة القاهرة بالرغم من معارضة راجح
لها ومحاولة ثنيه عنها فكان هذا إيذاناً بانتهاء تلك الحقبة الهامة
من حياة راجح التى عاشها تحت لواء الزبير إبنائه ، وقائداً لجيوشه
وتلميذا يأخذ عنه دروس السياسة والحرب فيعياها في ذاكرته
ليوم قريب ..

رحل الزبير إذن عن السودان فبلغ القاهرة في أوائل عام
١٨٧٥ حيث احتجزته الدسائس والمؤامرات فلم يقدر له أن يرى
راجحاً بعد ذلك وإن كان لم يغفل يوماً عن متابعة أخبار فتوحاته
في الغرب وكفاحه المجيد هناك ضد الاستعمار الفرنسى .

* * *

جاء في مذكرات الزبير ^(١) عن حوادث عام ١٨٩٦
الفقرة التالية :

« ... حدث في هذا العام أن زارنى سرّاً وفي بهيم الليل

(١) راجع كتاب «الزبير باشا رجل السودان» للدؤاف صفحة ١٤٥-١٤٦ .

بعض كبار الفرنسيين من أصحاب النفوذ في بلادهم وبقوا معي إلى ما بعد منتصف الليل بساعتين يحاولون إقناعي بأن أسعى لعقد اتفاق بينهم وبين راج قاندي القديم الذي كان قد أبى التسليم لجيسى مع ابني سليمان ومضى نحو الغرب بألف من الرجال المسلحين إلى أن وصل برنو ففتحها وأسس فيها ملكا عظيما جعل عاصمته دكوة جنوبي بحيرة تشاد إلى أن دخلت برنو هذه في نطاق نفوذ الفرنسيين فجردوا عليه جيوشهم ولكنه كان ما يزال القائد الذي سار تحت لوائى من نصر إلى نصر فهزم هذه الجيوش في أكثر من معركة دامية. ولهذا التجأوا إلى طالبيين أن أستعمل نفوذى لدى راج لايقاف هذه الحرب ولأطلب منه الانسحاب من برنو وعرضوا علىّ فى مقابل هذا المبالغ الطائلة مع استعدادهم لتنفيذ كل ما أطلبه منهم .. غير أننى رفضت عروضهم هذه .. كنت قد رفضت يدى من أمور القتال وما يجرى بالسودان منذ مصرع ابني سليمان وإن كنت قد أحسست لذكر راج وأنباء الحروب والغزو بريح حزينة ناعمة تهب فى صدرى وتسوق لى مواكب الماضى وذكريات أعوام طويلة قضيتها بين رائحة البارود وهتاف النصر وأنا شيدده...

ضد الاستعمار الانجليزى

« سليمان يواجه دنس الاستعمار —
غوردون يترى بثرات الزبير — روميللو
جيسى — كفاح سليمان — عند سفح
جبل مرعى — خديعة روميللو — راج
يفادر السودان — حقيقة الرجل الأبيض »

لم يكذ الزبير يفادر السودان حتى بدأت منطقة بحر الغزال
تشهد أحداثاً من لون جديد تهدف إلى القضاء على ذلك التراث
الضخم الذى أقامه الزبير وخلفه وديعة فى يد ابنه سليمان وقائده راج..

وكان سليمان الزبير ، الذى خلف أباه فى حكم مديرية بحر
الغزال ، حدثاً لم يتجاوز بعد الواحدة والعشرين من عمره عندما
بدأ يواجه مؤامرات غوردون الذى كان قد عين حاكماً عاماً
للسودان خلفاً لاسماعيل أيوب والذى لم يأل جهداً منذ اليوم
الأول لتعيينه هذا فى التمهيد للاستعمار الانجليزى وفى خلق
الظروف والأحداث التى يستطيع فى زحماتها وتناقضها أن يمكن
لقبضة الاستعمار من الالتفاف فى خسة ودناءة حول عنق ذلك
الجزء من الوادى .

بدأ غوردون مؤامراته بالتطلع إلى القضاء على تلك القوة الحربية الضخمة التي أقامها الزبير في منطقة بحر الغزال والتي كانت لا تزال تجتر في نشوتها بما أحرزته من انتصارات باهرة نتائج الوثبة التي نقلها إليها حكم الزبير وزعامته الشعبية . وكان طبيعياً ألا يسكت غوردون ، وهو كما قدمنا طليعة النفوذ الانجليزي الذي كان قد بدأ يحكم مصر ويتطلع لحكم السودان ، عن هذه القوة أو يطمئن إلى وجودها . فان جيشا يبلغ تعدادة الاثنى عشر ألفاً ويدين بالولاء لسليمان الزبير الذي ورث نفوذ أبيه في تلك المنطقة كان يعتبر خطراً حقيقياً على أطماع الانجليز كما اعتبر من قبل خطراً بالغا على أطماع الحكم التركي الفاسد الذي كان يمثله اسماعيل أيوب والذي من أجله أبعد الزبير عن السودان واحتجز في القاهرة .

بدأ غوردون في تنفيذ مؤامرة بتفريق جيش سليمان واخضاعه لقيادات متعددة جعل عليها أعوانه من الأتراك والخنوة ^(١) تاركا سليمان بلا جيش أو رجال حاكما على مديرية بحر الغزال . وقابل سليمان كل هذا بالسكوت فقد كان أبوه محجوزاً في القاهرة كرهينة وكانت أية معارضة من سليمان كفيلة على الأقل

(١) « تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته » تأليف نعم بك شقير

بأن تخرج مركز أبيه في القاهرة إن لم تكلفه حياته كلها . ولكن غوردون ما كاد يطمئن بعد ذلك إلى تجريد سليمان من كل قوة حتى أقدم على الخطوة التالية فعزله وعين بدلاً منه إدريس أتر ، وهو أحد الدناقة الذين اشتهروا بعداثهم للزير ، حاكماً على مديرية بحر الغزال .

عندئذ لم يكن هناك بد من أن يتحرك سليمان للدفاع عن نفسه وعن كيانه ضد تلك المؤامرة المحبوك . وكان هذا هو كل ما يهدف إليه غوردون في النهاية . إذ ما كاد سليمان يهب بقواته طارداً إدريس أتر من بحر الغزال ، ضارباً عرض الحائط بتعيين غوردون له ، حتى مضى الأخير يملأ الدنيا صياحاً بما أسماه ثورة سليمان على الحكم المصري ، مما مكّنه في النهاية من أن يسير ضده حملة حربية بقيادة أفاق إيطالي يدعى روميلوجيسى للقضاء نهائياً على كل ما بقي للزير من قوة ونفوذ في تلك الأصقاع . ولكن ما هو دور راجح في كل هذه الأحداث ؟

إن دوره في الواقع منذ أن رحل الزير إلى القاهرة إلى أن استسلم سليمان لقوات جيسى ليبدو للمحقق التاريخي غامضاً إلى حد بعيد . فنحن لا نعرف شيئاً على وجه التحديد عن جهود راجح في تلك الحقبة من تاريخه . والظاهر أن راجحاً ، بسفر الزير إلى القاهرة ، قد فقد الكثير من نفوذه في جيش سليمان ، بل لسنا

فستبعد أن يكون سليمان قد أقصى راجحاً عن القيادة وقرب إليه غيره من القواد فقد كان سليمان صغير السن قليل الخبرة ، وتفاصيل المعارك التي نشبت بينه وبين جيسى وإن كشفت عن كفاح مستبسل ضد الاستعمار الانجليزي ، إلا أنها لا تخلو من



سليمان الزبير يقود أسراه من رجال جيسى وأعوانه
أخطاء حرية ما كانت لتقع أو تكلف سليمان حياته فيما بعد لو كان
قد استمع إلى رأى قائد كرايخ تمرس بالحرب وحنكته المعارك

إلى حد بعيد واكتسب من الخبرة بالاعيب السياسة أبان انصالة
بالزير ما لم يتع لسليمان نفسه أن يكتسبه من أيه .

* * *

ولقد حدث بعد عدد من المناوشات بين قوات سليمان وجيسى
تأرجع فيها النصر بين المعسكرين دون الوصول إلى نتيجة حاسمة
أن التقت القوتان عند سفح جبل مرعى حيث كان سليمان قد
تحالف مع هارون والصباحى من أمراء دارفور في ثورتها ضد
نفس الاستعمار ونفس فساد الحكم التركى .. وكانت قوات سليمان
تخترن في أعماقها حقداً هائلا على ذلك الرجل الذى جاء غازيا
مستعمراً ، وكانوا يعلنون أنهم يقاتلون في معركة حياة أو موت ،
وكان سليمان نفسه عازماً على أن يقضى على عدوه في تلك المعركة
قضاء مبرماً ، أما راجح فقد كان يقود فرقة من البازنجر وهم خيرة
جنود سليمان الذين ظلوا مع قائدهم راجح على ولائهم لسليمان
في الوقت الذى كان قد انفض فيه كل من حوله من الأنصار .
استمرت المعركة طول اليوم عنيفة قاسية وابل البازنجر
في ذلك اليوم بلاء مجيداً حتى اعتبرت تلك المعركة بحق من أفسى
ما نشب بين سليمان وجيسى من معارك ^(١) ولم يلبث جيسى في آخر

(١) كتاب « سبع سنوات في السودان المصرى » لمؤلفه روميلو جيسى ص ٢٣٠

النهار أن ارتد مدحورا عن مواقعه وقد بدأت تلوح في الأفق
بوادر انهزامه حتى أنه لم يفكر في اليوم التالي في أن يعاود الكرة ،
بل أرسل يطلب إمدادات جديدة ويستميل من حوله قبائل
الزبيقات العربية التي لم تكن قد نسيت بعد ما أصابها من هزيمة
على يد الزبير نفسه .

في هذه الفترة الحاسمة التي كان من الممكن أن تشهد اندحاراً
تاماً لقوات جيسى يقضى على أطماع غوردون وصلت سليمان
رسالة من أبيه في القاهرة قلبت ميزان الأحداث وغيرت
مصير سليمان وراجح تغييراً تاماً . . فقد كان من الواضح أن
قوة سليمان قد أضرت بمركز الزبير الأدبي في القاهرة ضرراً
بليغاً حتى لقد نبئت الشائعات بأن الزبير نفسه هو الذي حرض
ابنه على الثورة انتقاماً لحجزه في مصر بما أجبر الزبير ، وهو الذي
كان يعيش كالأسير في بلاط خديوى مصر على أن يكتب لابنه
تلك الرسالة التي ينصحه فيها بالكف عن الحرب وتسليم نفسه
إلى غوردون مذكراً إياه بواجب الخضوع للحكومة
الخديوية السنية^(١) . ١١ .

وعملت الرسالة عملها الذي أريد لها أن تعمله فقد انقسم
بمجيئها معسكر سليمان إلى فريقين : فريق ينادى بالتسليم والاستجابة

(١) كتاب « الزبير باشا رجل السودان » للمؤلف . ص ١٣١ .

لنصح الزير وعلى رأسه سليمان نفسه ، وفريق آخر كان على رأسه رابع ينادى بالاستمرار في القتال خاصة وان ذكرى انتصارهم القريبة على جيسى ما زالت حية في أذهانهم .

وكان رابع بعيد الفكر ثاقب النظر فنهى سليمان عن التسليم لجيسى قائلا له (١) :

« لقد ناوأ جيسى فلا تتوقعن منه عفوا إذا صرت في قبضته . أما أنا فيؤسفني الانفصال عنكم بعد أن شاركتكم في السراء والضراء هذه السنين الطوال ولكني لا أسلم نفسي لجيسى لأن الدناقة يحيطون به ، وهو مطواع لهم وأنت تعلم ما بيننا وبين الدناقة من عداوة قديمة . وإنى لأشير عليك بالذهاب غربا وفتح بلدان جديدة . . . »

ولكن سليمان لم يستجب لهذا الرأي ، وانتصر في النهاية رأى الفريق القائل بالنسليم فلم يجد رابع مناصا عن الانفصال بقواته والاتجاه بها نحو الجنوب . أما سليمان فانه لم تكد تشرق شمس ١٤ يوليو ١٨٧٩ حتى سلم نفسه لجيسى الذي لم يلبث بعد أن أمنه على نفسه أن قتله غدرا وغيلة هو وثمانية من أهلامه .

(١) كتاب « حقائق الأخبار عن دول البحار » تأليف اسماعيل سرهنك باشا . الجزء الثاني ص ٣٣٥ .

وهكذا سقط سليمان وهو يدافع عن بلاده . . سقط كما سقط
الابطال بعد أن أدى دوره في مجاهدة الأفاقيين الأجانب من أمثال
غوردون وجيسى الذين كانوا يتصرفون لحساب دولهم وأطاعهم
وإن حرصوا على الظهور بمظهر المنفذين لسياسة مصر
وخديوى مصر . .

* * *

كان هذا هو أول احتكاك رابع بالاستعمار الأوروب .
ولقد تلقى رابع من هذا الاحتكاك الدرس الأخير فى سلسلة
الدروس التى تلقاها فوق أرض الجنوب . ولقد قدر له بعد ذلك
أن يكافح الاستعمار الفرنسى لفترة من الزمن طالت حتى بلغت
عشر سنوات كاملة فلم ينس غدر المستعمرين وخستهم فى القتال
كلما ذكر أخاه سليمان وأعمامه الذين شاركهم سنين السراء والضراء
وكيف قتلهم جيسى بعد أن استسلموا له وأصبحوا أسرى
معزولين عن كل سلاح . . ولعل رابع لم يكن فى حاجة إلى أكثر
من هذا لىكى تمتلئ نفسه بالقسوة والحق على هؤلاء الأجانب ،
وكأنى به بعد ذلك وهو يقتل فى غير شفقة أو رحمة كل من وقع
فى يده من رسل الاستعمار الفرنسى ورجاله أمثال كرامبل ،
وبهاجل ، وبريتونييه ، وفورولامى ممن سيأتى ذكرهم بالتفصيل ،

إنما ينتقم سليمان وأعمامه من اغتالهم الاستعمار الانجليزى
فى خسة وغدر . .

وثمة شيء آخر . .

لقد كشفت تلك المعارك الطويلة التى خاضها راجح إلى جوار
سليمان ضد جيسى ، كشفت لذلك الرجل الذى نشأ فى أصقاع
الجنوب بين قبائل تعيش على حال من البداوة الأولى عن حقيقة
الرجل الأبيض ، وعن حقيقة الاستعمار ومؤامراته ، وكيف
يتسلل فى ثوب الحمل ليقبض على عنق الشعوب بمخالب الذئاب .
ولقد كان راجح حقاً فى حاجة لأن يعرف كل هذا حتى لا تنطلى
عليه خدعة أولئك المستكشفين الفرنسيين الذين انطلقوا فى أواخر
القرن التاسع عشر يمدون باسم العلم ، وباسم المدنية لذلك الغزو
البربرى الذى منيت به أفريقيا أو القارة السوداء كما كانوا يسمونها
وكما سيطالع القارىء فى الفصول القادمة .

رابع... والحركة المهدية...

» رابع يتجه نحو الجنوب - شهرة رابع تبلغ
المهدى - دعوة المهدي لرابع - وفاة المهدي -
رابع وعبد الله التعايشي - السيد السنوسي -
رابع يصاهر السنوسي «

اتجه رابع ومعه حوالى الألف من رجال البازنجير المسلحين
بنحو أربعمائة بندقية نحو الجنوب بعد انفصاله عن سليمان الذى
فصلنا ظروفه فى الفصل السابق . وهناك بين القبائل التى تعيش فى
تلك المنطقة بدأ رابع حياة جديدة لحسابه الخاص إن صح هذا
التعبير . . فقائده الأول ، الزبير ، أسير فى القاهرة . وسليمان ،
صديقه وأخوه ، قد راح ضحية غدر جيسى ونكثه باليهود .
وبلاده التى نشأ فيها وأحبها قد أجلاه عنها مستعمر غاصب . وذلك
الجيش الكبير الذى تولى قيادته حقبة طويلة من الزمن قد تناقص
وانكمش تحت ضربات الأحداث فلم تبق منه غير تلك الفرقة
المخلصة الوفية من رجال البازنجير .

كانت كل الأسباب إذن قد قطعت بين رابع وماضيه نهائيا . .

وألقت به إلى هذه الحياة الجديدة وكأنما قد طوت صفحة لتنشر
أخرى جديدة في سطورها ، مهمة كذلك المجهول الذى يتربص
به فى تلك المناطق التى تقطنها قبائل وثنية معادية لم تلبسها بعد يد
الدين أو التحضر اللذين عرفهما رابع فى حوض بحر الغزال .

ولكن راجح لم يستسلم مع ذلك لوحشة المجهول الذى ألقت
به الظروف بين أحضانه ، بل نشط إلى مزاولة حياة الحرب والقتال
التي تعيش فى دمه ، فمضى يخضع القبائل ، ويغزو البلاد الواقعة
على حدود دارفور الغربية ناشرا خلفه الدين الاسلامى ، معلما
لواء زعامته الناشئة المتوثبة حتى أقبل عام ١٨٨٥ فاذا اسمه قد بدأ
يدوى فى تلك الأصقاع وينتشر كموجات من الماء فى بحيرة ساكنة
حتى تلقفته فى النهاية أذنا محمد احمد المهدي الذى كانت قواته تدك
فى ذلك الحين أسوار الخرطوم وترسل فى سماء السودان أول
صيحة للتحرر الوطنى ضد الاستعمار الانجليزى والفساد التركى ..

بلغت شهرة رابع إذن إلى آذان المهدي فتاق إلى أن
يضمه إلى صفوفه ليكسب لدعوته قائدا لا يجيد فنون القتال
إجادة نامة فحسب ، وإنما بينه هو الآخر وبين الاستعمار
الانجليزى والفساد التركى ثار قديم فأرسل إليه رسولين
الأول يسمى زين العابدين والثانى يدعى جبار حاملين

إليه دعوته للانضمام إليه . والواقع أن حركة المهدي لم تكن حركة دينية متعصبة كما رماها بذلك الاستعمار الانجليزى ليؤلب ضدها كل العناصر وكما أراد لنا دائما أن نفهمها . وبالرغم من أن تتبع هذه الحركة والعوامل التى أدت إلى نشأتها مما يخرج عن نطاق كتابنا هذا إلا أننا لانملك هنا إلا الوقوف أمام دعوة المهدي لرابع ، ودعوته فى نفس الوقت للسيد محمد المهدي السنوسى ليكون خليفته الثالث وهو الذى كان يبسط نفوذه فى ذلك الحين على طرابلس وودّاي ومناطق السودان الغربية . هاتان الدعوتان تظهران بجلاء رغبة المهدي فى أن يجمع كل الصفوف ، وأن يوحد كل الجهود نحو هدف واحد هو تطهير السودان من كل غاصب أو دخيل مستعينا فى سبيل ذلك بكل القوى والامكانيات مما يخرج بدعوته عن نطاق الذاتية المتعصبة إلى نطاق القومية الواسعة التى تهدف إلى خلق وطن حر موحد .

ولقد رحب رابع بالانضمام إلى المهدي . . ربما لأنه وجد فيه بديلا عن قائده الأول ، الزبير ، الذى لم تلبث المؤامرات ان نفته إلى جبل طارق لتبعه به عن نطاق حوادث الحركة المهدية . . بديلا يستطيع أن يعكس ما كانت تغلى به البلاد فى ذلك الحين من عوامل السخط والثورة . . أو ربما رحب بذلك الانضمام ليفسل بدم غوردون ذكرى مقتل سليمان . على أية حال فقد كان رابع

سريعاً إلى الترحيب بتلك الدعوة وإلى تليتها فما كاد يصل إليه رسول المهدي حتى بدأ يتحرك بقواته للانضمام إليه غير أنه ما كاد يبلغ حدود دارفور الغربية حتى بلغه موت المهدي في ٢٢ يوليو ١٨٨٥ وتولى عبد الله التعايشي الزعامة من بعده . عندئذ كان على رابع أن يقف قليلاً ، وأن يراجع موقفه من الحركة المهدية بعد هذا التغير الذي قفز بعبد الله التعايشي إلى منصب الزعامة الأول . وكان بين رابع وعبد الله التعايشي هذا تاريخ قديم .

فقد حدث أثناء حرب الزبير مع عرب الرزيقات أن وقع في الأسر فقيه من فقهاء التعايشة يدعى عبد الله ود محمد آدم تورشين ، وكان الرزيقات قد استخدموه ليقرأ لهم الأسماء في خلوته لعلها تقبض على سلاح الزبير فلا يطلق ناره في ساحة الحرب وتعهدوا له في مقابل هذا ببقرة حلوب فلما وقع هذا الفتي في الأسر لم يتردد الزبير في الأمر بإعدامه .

وكان مع الزبير في ذلك الوقت اثنا عشر عالماً من علماء الدين وقد جعلهم يقسمون له على القرآن الشريف بأنهم إذا رأوا منه في أحكامه اعوجاجاً عن الشرع ينهبوه إليه . فلما أمر بإعدام ذلك الرجل ، الذي عرف فيما بعد باسم عبد الله التعايشي ، اعترض هؤلاء العلماء بحجة أن الشرع لا يجيز له قتل أسير من أسرى الحرب فضلاً عن أن حسن السياسة ينكر على الزبير إعدام رجل

يعتقد الناس في صلاحه وطيبته . غير أن رابعاً لم يكن يرى هذا الرأي فعارض في الابقاء على حياة عبدالله هذا بحجة أن اعتقاد العامة فيه واتجاره هو بالدين على هذا النحو قد يثير من الفتن ما يكشف مؤخرة قوات الزبير التي كانت منهمكة في ذلك الوقت في قتال مرير مع عرب الرزيقات .

ولكن الزبير فضل في النهاية أن يستجيب لرأى علماءه فتراجع عن قتل أسيره الذي استطاع بعد ذلك ، عندما اشتهر أمر محمد احمد المهدي في جزيرة ، أبا ، أن يتصل به وأن يتقرب إليه حتى فاز بشقته ، فلما دان للمهدي حكم السودان عينه خليفة له إلى أن مات فبايع الناس عبدالله التعايشي هذا اماماً وحاكماً من بعده^(١) .

* * *

توقف رابع إذن عند حدود دارفور عندما بلغه نبأ موت المهدي وتولى عبدالله التعايشي الزعامة من بعده .. وكان عليه أن يفكر مرتين قبل أن يقدم نفسه إلى الرجل الذي حرض الزبير يوماً على قتله والذي نادى بوضع حد لحياته ذات يوم منذ أكثر من عشر سنوات .

ولم بطل التفكير برابع إذ كان من الطبيعي عندئذ وبعد أن

(١) كتاب « تاريخ مصر في عهد الحديوى اسماعيل » تأليف الأستاذ الياس الأيوبي الجزء الثانى ص ٤٩ .

سارت الأمور على ذلك النحو أن يرفض الانضمام إلى الحركة
المهدية خوفاً من انتقام عبدالله التعايشي فقرر الرجوع بقواته إلى
أقليمه السابق ليعاود الغزو والفتح هناك ويضيف إلى ذلك اشتغاله
بتجارة العاج والصمغ وریش النعام .

ونحن لا نستطيع هنا أن نجد أى اعتراض على قرار رابع
هذا بعدم الانضمام إلى الحركة المهدية إذ أن عبد الله التعايشي لم
يلبث أن بدأ عهداً من الارهاب فيمن حوله من القادة والاتباع
فكان لا يتورع عن أن يلقي إلى السجن أو الموت كل من يخشى
منه على مركزه أو زعامته وقد كان من المحقق أن يلقى رابع على
يدى التعايشي مصيراً كهذا ..

* * *

في هذه الفترة من حياته انصل تاريخ رابع بزعيم ديني آخر
هو السيد محمد المهدي السنوسي اتصالاً قدر له أن يلعب دوراً
هاماً في حياة رابع وفي كفاحه ضد الاستعمار الفرنسي بعد ذلك .
والسيد محمد المهدي السنوسي هذا هو ابن محمد بن علي السنوسي
مؤسس الطريقة السنوسية التي يدين بها معظم القبائل التي تقطن
الصحراء الليبية . وقد قام بعد وفاة أبيه بنشر طريقته ومعه أخوه
السيد محمد الشريف السنوسي جاعلاً من واحة جغبوب مركزاً له .
وقد ازداد عدد المريدين للسنوسية على عهد محمد المهدي هذا !

أضعافا كثيرة وكان من بين من اتبعوه ملك وداى وجميع أهل مملكته وكان هذا الملك يجمع له الهدايا كل عام ويرسلها له مع رسل مخصوصين ويشاوره فى جميع شئونه حتى أنه لم يكن يقطع أمراً دون مشورته ^(١) .

ولمحمد المهدي هذا زوايا كثيرة متفرقة فى الحجاز والغرب والبادية وكان فى كل زاوية خليفة من قبله يدير شئونها ويبايع الناس فيها بدلا عنه ويعلم فيها أولادهم القرآن ومبادئ العلوم . وكان هذا الخليفة ينشأ له زرع بمساعدة السالكين عنه ويقتنى الماشية فيصرف من ذلك على الزاوية وما زاد يرسله إلى شيخه السنوسى . وقد كثرت الزوايا بالبادية حتى صار دخلها عظيما وحتى صار محمد المهدي أشبه بملك يحجب إليه الخراج . وكان له مقام عند أهل طريقته أشبه بمقام الملوك . وكان أهل البادية لا يعرفون حاكما غيره ولا يخضعون للحكام إلا بواسطته بل كانوا يعتقدون أنه هو المهدي المنتظر وإن كان هو لم يعلن هذا أو يرده .

ولقد أرادت الدولة العلية إبان سيطرتها على طرابلس استدعاه إلى الأستانة فلما شعر بذلك رحل من جغبوب ونزل بالكفرة عن طريق وداى وبني له زاوية هناك وجعل منها مقراً له حتى آخر أيامه .

(١) « دائرة المعارف البستانية » المجلد العاشر ص ١٤٦ .

وفي الكفرة سمع السيد محمد المهدي السنوسي باخبار رابع
وفتوحاته فكان طبيعيا أن يجد فيه حليفا قويا فانصل به عن
طريق رجاله ولم يلبث هذا التحالف أن توج بزواج فتح الله نجل
رابع باحدى كريمات السيد السنوسي وتدعى خديجة فزادت هذه
المصاهرة في توثيق الصلات والاواصر بينهما .

ولقد كان السيد السنوسي شديد الكراهية للاجانب لا يسمح
لهم أن يطأوا زاويته ، بل لا ينشطهم حتى على التجول في الصحراء
في أرض زواياه ولا يجب أن يتدخل أحد من الأجانب في شئونه .
وبمقتضى هذه السياسة الوطنية كان على رابع ، بالاتفاق مع
السنوسي القيام بمهمة حماية تلك البلاد من تسرب بعثات الفرنسيين
اليها . وعلى هذا الأساس اقتنع رابع في عام ١٨٩١ بعثة بول
كرامبل عند بلدة « الكوتي » وقتل رئيسها فكان هذا بدء اصطدام
رابع بالفرنسيين ، وهو الاصطدام الذي حمل رابع بعد ذلك
عبئه على كتفيه طوال عشر سنوات كاملة لم ينكص أو يتراجع
وإن كان السنوسي ، وكأنما قد خاف على نفسه مغبة هذا الصدام ،
قد آثر أن يتنصل من مقتل كرامبل وأن يهادن الفرنسيين ويتبادل
معهم البعثات تاركا رابحا وحده ، حليفه وصهره ، يواجه الموجات
المتتالية من حملات الفرنسيين كما سنرى في الفصول القادمة .